تقديم

رغم كثرة علماء الزيتونة في كل العهود وخاصة منذ منتصف القرن التاسع عشر، فإنهم في الغالب كانوا يكتفون بالتدريس اعتمادًا على كتب السابقين، وأما الكتّاب والمؤلفون من بينهم فقد كانوا قلة، لكأنهم كانوا يتهيّبون الكتابة، وحتى عندما يكتبون فإنهم كثيرًا ما يحتفظون بإنتاجهم لأنفسهم، فيبقى مخطوطًا. وهذا ما نتبينه من خلال تراث الشيخ محمد البشير النيفر (1306-1394هـ/ 1889-1974م) إذ ترك ما لا يقل عن عشر مخطوطات ذات أهمية متفاوتة تتعلق أساسًا بمسائل دينية، إلى جانب مذكراته وعدد من المراسلات التي لم يسبق نشرها؛ وبالنظر إلى الأهمية التي تكتسبها هذه الوثائق، فقد رأى حفيده أ. د. احميده النيفر أن يقوم بتحقيقها وتقديمها للجمهور العريض.

إن مسيرة الشيخ محمد البشير النيفر تتأطر ضمن ثلاث دوائر متداخلة، وهي العائلة والزيتونة والوطن، وتشكل كل دائرة منها مستوى من الانتماء أو العضوية الفاعلة. فعلى المستوى الأول، ينتمي الشيخ محمد البشير النيفر إلى عائلة عريقة تنحدر من أصول شريفة ولها صلة بالتصوف، ويعود استقرارها بحاضرة تونس إلى مطلع القرن الثامن عشر، وفيها نجحت في الاندماج الاجتماعي بالمصاهرة مع عدد من العائلات المدينية الأخرى، وتحولت في جزء منها من عائلة تجارية إلى عائلة علمية بالمعنى الديني للكلمة، وفي هذا الإطار أنجبت هذه العائلة الماجدة عددًا من القضاة والمفتين والمدرسين والأئمة والعدول. وعلى المستوى الثاني، يشكل جامع الزيتونة المعمور محور حياة الشيخ محمد البشير النيفر، ففيه تلقى تكوينه العلمي وفيه اشتغل مدرسًا

وموثقًا وإمامًا. أما على المستوى الثالث وهي الدائرة الأوسع، فقد تفاعل مع الحراك الوطني في فترة مبكرة من مطلع **الثلاثينيَّات** خلال أحداث التجنيس التي شكلت مناسبة التحمت فيها قيادة وطنية صاعدة بالجماهير الشعبية.

لا بد أن نضيف كذلك بأن الشيخ محمد البشير النيفر كان مجايلًا لعدد من كبار أعلام جامع الزيتونة من أمثال عبد العزيز جعيط ومحمد الطاهر ابن عاشور، وتُشبه مسيرته مسيرة العديد من المشائخ أمثاله من أصول مدينية، فقد اشتغل في التدريس بالجامع الأعظم منذ 1905 أي لمدة تفوق الخمسين عامًا، كما درس بمدرسة ترشيح المعلمين والمدرسة الصادقية، وتولى الإمامة وخاصة منها إمامة جامع الزيتونة، والإفتاء والقضاء والعدالة والتوثيق.

ومثل العديد من معاصريه من الزيتونيين، استطاع الشيخ محمد البشير النيفر أن يتواصل مع عدد من علماء الدين ورموز الحركة الإصلاحية خاصة في المشرق العربي، ومن أبرز من ناقشهم أو راسلهم الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار التي كانت تصل السوق التونسية، والشيخ محمد الخضر بن الحسين إمام جامع الأزهر في عهد جمال عبد الناصر. وتتضمن هذه المذكرات جوانب جديدة حول هذين العلمين وحول غيرهما من العلماء المعاصرين.

ولعل من أهم ما تضمنته مذكرات الشيخ محمد البشير النيفر ما يتعلق بدوره خلال السنوات الأولى من الاستقلال، وهي فترة عرفت تحولات كبرى في تاريخ بلادنا. ذلك أن الظروف الداخلية المتوترة التي أحرزت فيها تونس على استقلالها سنة 1956، قد هيأت لمعركة جديدة جاءت تحت عنوان «الخروج من التخلف»، وتم في أتونها الحتّ من بنى المجتمع التقليدي، وهو ما مس من النخبة الزيتونية التي وقع التعامل معها كما لو أنها كانت طرفًا منهزمًا في معركة التحرر الوطني. ومن هذه الزاوية يمكن النظر إلى عدد من القرارات التي اتُّخذت خلال الأشهر الأولى من الاستقلال ومن بينها إلغاء الأوقاف وتوحيد القضاء ومجلة الأحوال الشخصية.

وما يجب ملاحظته أن تلك القرارات لا تندرج ضمن القطيعة وإنما ضمن الاستمرارية مع الفترة الاستعمارية، ذلك أن فرنسا التي تعطي أهمية إلى الهيمنة الثقافية، وجدت

في الساحة التونسية جامع الزيتونة الذي يشكل أيقونة للمقاومة الثقافية والحضارية، فسعت دائمًا إلى تهميشه والتضييق عليه، واستمرت على ذلك دون تراخٍ، حتى لما جاء الاستقلال بلغت الزيتونة درجة من الوهن، وهو ما سهل الإجهاز عليها بسهولة دون ردود أفعال قوية.

وبالفعل فرغم أن الزيتونيين قد تضرروا بسبب الإجراءات التي اتخذت مباشرة بعد الاستقلال، فإنه لم تتشكل في صفوفهم كتلة تعكس وزنهم الاجتماعي وداخل النخبة، ولم يسعوا إلى التنسيق فيما بينهم للتعبير عن مواقفهم وآرائهم والتأثير في التوجهات الرسمية للدولة. إلا أن مذكرات الشيخ محمد البشير النيفر ووثائقه تكشف عن اتصالاته شخصيًا بأصحاب القرار وعلى رأسهم الزعيم الحبيب بورقيبة في محاولة للتأثير على توجهاته وربما ثنيه عن القرارات التي اتخذها. كما نتبين من خلال هذه المذكرات وجود بعض المشائخ الزيتونيين الآخرين الذين لم يصمتوا هم أيضًا وإنما قاوموا على طريقتهم، وكانت لهم مواقفهم المعارضة لتيار الدولنة العاتي فيما يتعلق بالشأن الديني الذي يعنيهم بصفة أساسية.

والأكيد أن الشيخ محمد البشير النيفر ما كان ليجد الشجاعة والجرأة كي يتدخل لدى كبار المسؤولين لولا ماضيه الشخصي والعائلي في مقاومة الاستعمار، فقد اهتم آل النيفر أكثر من أي عائلة مدينية أخرى بالشأن العام من موقع وطني، وسجلوا حضورهم على الساحة الوطنية على الأقل منذ مطلع العشرينيات، واستمر ذلك إلى ما بعد الاستقلال، وقاموا أثناء ذلك بدور كبير في أحداث التجنيس في ربيع 1933، عندما أفتى الشيخ محمد البشير النيفر نفسه بحرمة تجنس التونسي بالجنسية الفرنسية، وكان لهذه الفتوى دورها في إذكاء الحراك الشعبي والحط من الفتوى الممالئة للسلطات الاستعمارية التي أصدرها المجلس الشرعي. ثم برز من آل النيفر عدد من العناصر النشيطة على الساحة الزيتونية التي ساهمت في الحراك الاجتماعي والثقافي والشبابي والتربوي، فضلًا عن دورها الديني وفي الساحة السياسية الوطنية.

كل ذلك شكل أسسَ شرعيةٍ تاريخيةٍ للشيخ محمد البشير النيفر فلم يصمت مثلما فعل كثيرون آخرون بعد الاستقلال، وإنما أبلغ رأيه في قالب نصائح أو

التماسات إلى الحبيب بورقيبة، الماسك يومئذ بقيادة الدولة الوطنية، وهو ما يبرر عنونة الكتاب «العالم والزعيم»، رغم أن العلاقة بين الرجلين تتجاوزهما إلى آخرين من رجال الدولة مثل السادة الباهي الأدغم وأحمد المستيري والطيب المهيري من جهة، ومن جهة أخرى دائرة العلماء على غرار المشائخ محمد العزيز جعيط ومحمد الطاهر بن عاشور وإبراهيم النيفر. وبالفعل فإن هذه المذكرات تسمح لنا بتلمس العلاقة بين هاتين الدائرتين، وتكشف جانبًا بقي مغمورًا من المقاومة الزيتونية التي لم تكن من أجل الخلاص الفردي لأصحابها، وإنما من أجل المجموعة ككل.

يتضمن هذا الكتاب رسائل لم يسبق نشرها موجهة إلى الزعيم بورقيبة أو صادرة منه إلى الشيخ محمد البشير النيفر تتعلق ببعض المسائل التي رأى ضرورة التدخل بشأنها، ومن بينها مسألة الأوقاف؛ إذ كتب إليه قائلًا «لا يخفى عليكم أن للوقف صبغة دينية، فيجب الاحتفاظ به»، إلا أن ذلك لم يكن ليثني الزعيم عن المضي في سياسته التي تهدف إلى دولنة المجتمع وتمريرها تحت شعار التحديث ومواكبة العصر. وكان من الطبيعي حينئذٍ أن يتوقف الشيخ عن محاولاته.

كما تكشف مذكرات الشيخ محمد البشير النيفر أن الوسط الزيتوني لم يكن متجانسًا ولا منسجمًا وإنما كان يسوده التنوع وحتى التنافر أحيانًا، ليس بين الطلبة والأساتذة كما كان عليه الحال في العقود السابقة، أو بين ما كان يسمى بـ«الآفاقيين» القادمين من دواخل البلاد و«البِلْدِيّة» من أبناء الحاضرة، وإنما كانت تشقّه في مختلف العهود انتماءاتٌ مذهبيةٌ وعائليةٌ وجيليةٌ مختلفة مما يحول دون الاتفاق على مطالب فئوية أو مواقف واحدة، ولم تكن لهم على هذا الصعيد تجربة سابقة في العهد الاستعماري وبالتالي لم يكن ذلك ممكنًا بعد الاستقلال.

ومما زاد في إضعاف موقف الزيتونيين أن الحركة الطلابية التي عرفت باستمرار كفاحها ومطالبها على مدى يمتدّ نصفَ قرنٍ، بداية من ربيع 1910، اتجهت نحو التراجع مباشرة بعد الاستقلال بعد أن حُكم على التعليم الزيتوني بالانحسار، وبعد أن تم استيعاب خريجي الزيتونة في الوظيفة العمومية. في حين هُمِّشَ مشائخهم أو أُبعدوا

عن وظائفهم، بسبب التقدم في السن أو لعدم مساندتهم للسلطة. وإلى هذه الفترة تعود كتابة الشيخ محمد البشير النيفر لمذكراته.

إن هذه المذكرات تلقي الضوء على النخبة التقليدية وعلاقتها بالدولة الوطنية في فترة سطوتها؛ ولقد وفق أ.د. أحميده النيفر في تحقيقها وتقديمها بعد أن أضاف إليها عددًا من الوثائق المكملة؛ فكانت النتيجة هذا الكتاب الذي يثري المكتبة التونسية والعربية عمومًا، راجين أن يتبعه نشر مجموعة المخطوطات التي تركها الشيخ محمد البشير النيفر وفاء للجيل الزيتوني الذي شهد غروب جامع الزيتونة.

محمد ضيف الله

المروج 4 أكتوبر 2021